«رباعيات» بدرية الملاك... تدخل من بهو التشظّي لتقول كلّ شيء في شيء

النمسا ـ طلال مرتضى

عندما تصير لست ملكك، تهمد كجذوة وهبت الأيام قبسة أمل، لا ضير أن تترك في الأرواح بقعة ضوء مجعّد يرتّل عليه ممثلو الحياة أناشيد نظمها شعراء حمقى، مطالعها تدلي بأن الغد أجمل، وأن الحياة أجمل ألف مرّة من الجنّة.

لم تعد في الروح مدنٌ فاضلة، ولم يكن «أحدب نوتردام» أحدباً البتة، تلك «الحردبّة» التي تكوّرت بين كتفيه هي أوجاع من أحبّهم، ودليلي صوب معراج الكلام، الذي قادنا نحو الاعتراف حين تعارفنا على قارعة الورق: زوجي الحبّ، طفلتي الحياة، طفلي الوطن، أمّي الجنّة، أبي الفخر، إخواني، أخواتي السند، أصدقائي البسمة، القصيدة التي لا تموت، «ذاتي».

قلت: وأنا؟

ردّت: عابر حبر!

في «رباعيات»، المنجز الأخير للشاعرة العُمانية بدرية الملاك الصادر عن «دار مسارات للطباعة والنشر والتوزيع»، نقف أمام السؤال البديهي: ما معنى رباعيات؟ إذ إن الساحة الثقافية الأدبية ضجّت بهذا المسمّى، وهو دلالة كعلامة فارغة على المنتج حين يتموضع كعتبة أولى ـ عنوان ـ ليفضي إلى السرّ.

رباعيات معمارها مختلف

فالرباعيات جاءت من رباعية، والرباعية مقطوعة شعرية من أربعة أبيات تدور حول موضوع معيّن، وتكوّن فكرة تامة. وفيها إما أن تتفق قافية الشطرين الأول والثاني مع الرابع، أو تتفق جميع الشطور الأربعة في القافية. وهو طرق عمل به الشاعر الفارسي عمر الخيام وإلى وقتنا هذا تُوسم باسمه. وهنا لا بدّ من التنويه إلى أن «رباعيات» بدرية الملاك تختلف كلياً عمّا سبق التعريف به. فهي جاءت من حيث أن كلّ معنون داخلي ـ عتبة صغرى ـ يحمل على كاهله أربع مقطوعات تختلف بالمعمار والتشكيل البنائي عمّا اجترعه الحجة عمر الخيام: للمرّة العشرين

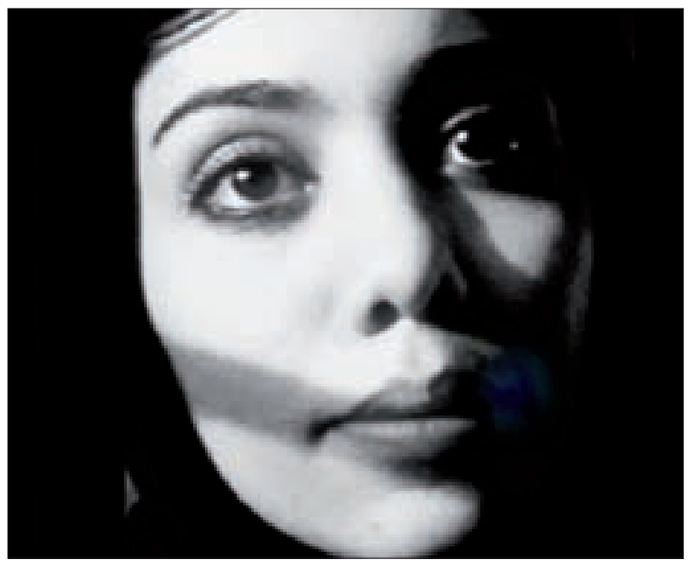

أنا ما هويتك سيّدي
إلا حين هواني الهوى
فالتفتُّ إليك.

وممّا تقدّم وجوباً، لا بدّ من الإشارة إلى ما تكتنفه ضفّتي الكتاب هو أقرب إلى البوح الذي يقتنع بالشعر، فيبقي على الحالة ويتطيّر إلى استبطان موقف من العالم بهجائية ساخرة تقوم على المفارقات والتوريات:

مسؤول هذا الوطن ومن فيه
عن كل قطعة
خبز
ذهبت أمام عين فقير
ولم تعد.

جمع الكلّ في واحد

أي أنه الأقرب إلى الشعر الحرّ والومضة، أقل وأكثر قدرة على التكثيف والواقع، بحيث يأخذ من روح الهايكو طريقته، لكنه يتوسّل اقتفاء الصوَر ومناهضة سائد ما بالتطيّر إلى عبارات فادحة المعنى ومحتدمة الدلالة:

وحيدة بحنيني إليك
كوحدة مريم عند مخاضها
أقصى ما أملكه
أن أهزّ جذوع الصبر جميعها
حتى ألقاك
وأشتمّ رائحة حضنك
أقلب كفوف يدك؛ لأقبلها!

استنباطاً واستدلالاً ممّا تعالقت النصوص مع مثيلاتها، نخرج إلى حكم هادئ يجلي غبار الشبهة عن ماهية النصوص التي افتعلتها الشاعرة بدرية الملاك بدأب ومكابدة، بعدما زجّت طيّ نصوصها كلّ صنوف القول الشعري، ولست أدري هي المكيدة أم هي الفورة الشعرية التي تدهم الشاعر على حين غرّة، لتسقطه صريعاً أسيراً كعبد مملوك للفكرة التي تريد قول كلّ شيء في شيء:

هل تجيء اليوم؟
فما عدت أقوى
لهفي عليك
كمدينة مشتعلة

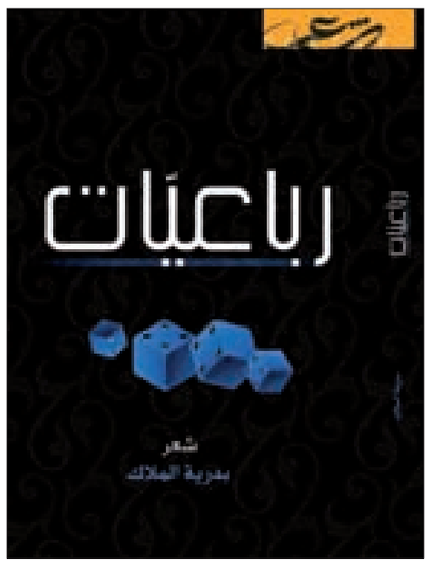

لا شيء يطفئها
أدرك حتماً أن قبل لقياك
ما وُلد الأمل
وبعد لقياك ينتهي كلّ الكون
الوقت، التاريخ، غليان القهوة
كأن شيئاً لم يكن.

لذا أخلص إلى القول إنّ ما ابتدعته بدرية الملاك في رباعياتها، ما هو إلا ضرب من ضروب التشظي، وهذا نوع من أنواع الكتابة عرف في الآداب الغربية، يشبه كتابات ما بعد الحداثة. مثلاً ما كتبه آلان روب غرييه عن الرواية، ومارسها هو برواية التشظي، أي أنّها لا تعتمد منطقاً معيّناً، بل تتداعى لتشي بموقف من الذات والحياة:

مخاض هو الشعر
إن لم يكن إجهاضاً
والوطن الذي يسكن تحت شجرة
يعزف قيثارة كلّ صباح
لم يعد طفلاً
فلقد احتلم عند الغروب
رُفِعَ عنه القلم.

«الفجر الأول»... ديوان يسلّط الضوء على شاعر سوريّ منسيّ

محمد خالد الخضر

ديوان «الفجر الأول» للشاعر السوري خليل شيبوب، أعاد طباعته محمد رضوان الداية، وأبرز فيه بعض الملامح التي رصدها شيبوب بقصائده، إضافة إلى ما كتبه عنه أحمد شوقي أمير الشعراء، ومسيرة حياته منذ ولادته في اللاذقية إلى استقراره في الاسكندرية في مصر.

ويوضح الداية في الكتاب الذي أصدرته الهيئة العامة السورية للكتاب أن شيبوب ولد في اللاذقية يوم 28 كانون الثاني عام 1892 وترعرع فيها وكانت بجوها الثقافي والتعليمي بيئة مناسبة لتنشئته ومهيأة لنبوغه الشعري إلا أن هذه المدينة لم تكن على خط الحركة الاقتصادية والسياحية الناشطة في تلك الفترة فذهب إلى مدينة الاسكندرية في مصر لتنمو هنالك قريحته الشعرية وليوطّد صداقات متينة مع كتّاب وشعراء مثل أحمد شوقي وخليل مطران.

ويبيّن معدّ الكتاب الداية أن الحياة الفكرية والثقافية والأدبية في الاسكندرية كانت أرحب وأوسع من مثيلتها في اللاذقية، فاستطاعت أن تدفع بموهبة شيبوب للتدفق الشعري التي نشأت ونضجت واكتملت أدواتها في الشام. ثم كان الاندفاع عندما انتقل للعيش في الاسكندرية التي قال فيها:

أشواطئ الاسكندرية طيب
فيك المصيف لعاشق ولهان.

ورأى الداية أن انتقال شيبوب لمدينة ساحلية كفل له استمرار روائح اللاذقية وعطر شجرها ونباتها حيث شهد فيها مختلف الفنون والنهضة والشؤون بفضل اتصالها المباشر بدول العالم، وانتشار المطبوعات وكثرة المحافل والأندية والمسارح والصحف والمجلات السياسية والأدبية.

ويرى معدّ الكتاب أنه كان للشاميين فضلهم على الصحافة الشعبية المصرية وكانت الحاجة ماسة إليهم في ميدان الترجمة في مختلف مجالات الحياة لمعرفتهم باللغات الأوروبية إلى جانب اللغة العربية.

أما حياة شيبوب في الاسكندرية بحسب الكتاب، فسارت في اتجاهين، أحدهما تحصيله العلمي والإداري، والثاني اندماجه في الحركة الأدبية والصحافية والثقافية، وظهوره شاعراً ناثراً مؤلفاً، وكان الشعر أهمّ ما عرفه الناس به كما عُرف ناشطاً في الأوساط الأدبية والثقافية والإعلامية، لا سيما تقديم المحاضرات والجلسات الشعرية، وإعداد الندوات. كما شارك في الترجمة والتأليف وكتابة القصة والدراسات التاريخية.

ويتحدّث الداية عن نشاط شيبوب في مجال الترجمة من الفرنسية إلى العربية ودراساته عن التاريخ والتراث الأدبي العربي والحركة الأدبية الحديثة في مصر، وعمله منذ عام 1920 محرّراً للصفحة الأدبية في جريدة «البصير» الاسكندرانية. مشيراً إلى أنه عرف أساليب العرب في مختلف بقاعهم وحفظ من بدائعها واستظل بروائعها، ما ساهم في تمكّن شعره ومتانته، كما تجلى ذلك في قصيدة «بؤس» التي قال فيها:

أما آن من القلب أن يهدأ
وللدمع في العين أن يرقأ

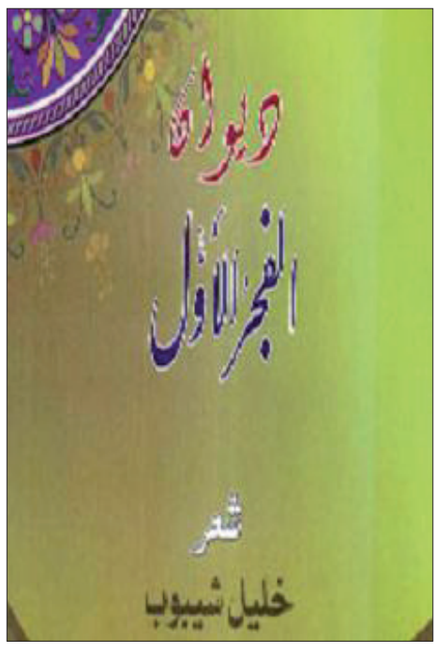

وللجسم في العمر أن يستريح
وللداء في الصدر أن يبرأ.

ورغم غربة شيبوب الطويلة، ظلّ وطنه سورية هاجسه. فتألم من تعرضه للاحتلال الفرنسي الذي شكّل عبئاً ثقيلاً على أهله وأحوالهم فعصف به الحنين واشتد الشوق فقال:

البحر مخفور الجهات أمامهم
والبرّ خلفهم جديب بلقع
والشتق ماض في البلاد وحالة
أدهى وأهول ما يكون وأفظع
لهفي على الأطفال كل صراخهم
جوع وهمّ في المهد لم يترعرعوا.

وفي الكتاب، للحبّ دور في شعر شيبوب جعله يكتب ما لديه من عواطف رقيقة ويصوغها شعراً ملتزماً خلاله بالموسيقى والنمط الأصيل الذي اقتصر على التراث في صوغ القصيدة. فقال في قصيدته «نظرة وخطرة على شاطئ البحر»:

يا حبّ قد أفنيتني فكرة
وتركتني بين الورى خبرا
وسلبت قلبي كلّ راحته
ووهبت قلبي الهمّ والضجرا.

وينقل الداية ما كتبه الشاعر خليل مطران عن شيبوب وعن انحيازه الفائق إلى اللغة العربية، الذي تجلى في صنعته الشعرية وفي كتاباته النثرية المختلفة، كاشفاً معرفته خصائص لغته وأسرارها وتمكّنه منها.

يذكر أن للشاعر شيبوب مجموعة من الإصدارات منها ديوان «الفجر الأول» و«المعجم القضائي»، وسلسة عن المؤرخ العربي عبد الرحمن الجبرتي، وله كتب مترجمة أخرى، كما يعتبر من أهمّ شعراء عصره الذين لم ينالوا حقهم.

جمالية السرد المغلق في «رسائل حبّ مفترضة» للعُمانية ليلى البلوشي

محمد يوب*

مقدّمة لا بدّ منها: لقد ظهر أدب الرسالة بعد توسّع الفتوحات العربية والإسلامية وتأسيس الدولة؛ نتيجة لبعد المسافة الجغرافية بين المرسل والمرسَل إليه؛ ما خلق حاجة إلى اعتماد الكتابة وسيلة للتواصل.

وفي الوقت الحاضر، هناك من يقول باختفاء جنس الرسائل الأدبية؛ وهذا كلام لا أساس له من الصحة؛ إذ إنّ أدب الرسائل لم يختف من الساحة الأدبية، إنما بسبب تسارع نبض الحياة تغيرت وسيلته في التعبير؛ فخرج من عباءته التقليدية، ليواكب عصر السرعة والعولمة والإنترنت؛ أي أنه انتقل من مرحلة التراسل عبر الكتابة إلى التراسل عبر التواصل الاجتماعي التي تعبّر عن واقع العصر ومستجداته؛ من خلال «الإيميل» و«واتس آب» بالصوت والصورة. لا بل أكثر من هذا، لم يعد جنس الرسائل الأدبية محاطاً بنوع من السرّية، إذ أصبح عرضة للتجسّس من خلال قرصنة الحسابات والاطّلاع على أسرار المتراسلين (الكاتب هو أكبر متلصّص في تاريخ البشرية).

ويعدّ تاريخ البشرية هو تاريخ الرسائل نفسه؛ فقد عرف ازدهاراً كبيراً في المشهد الثقافي الأوروبي؛ بحكم حرّية التعبير، لكنه ظلّ شديد الحياء في عالمنا العربي بحكم العادات والتقاليد التي تحكم المجتمعات العربية؛ ومن أشهر المراسلات نذكر الرسائل المشهورة بين غسان كنفاني وغادة السمان، وأخرى بين مي زيادة وجبران خليل جبران، ومن أبرز الرسائل الافتراضية المتخيّلة «رسائل حبّ مفترضة» بين هنري ميللر وأناييس نن، للكاتبة العُمانية ليلى البلوشي.

في عمق الرسائل

من جميل صنيع السرديات الأدبية أنها تقتحم حياتنا وتكشف أسرارنا؛ تشتغل على إبراز أشكال تعبيرية كادت أن تزول لولا حضور السرد فيها؛ ومن أبرز هذه الأشكال نذكر فن الرسائل؛ الذي يعتبر من فنون الكتابة النبيلة عبر الأجيال والعصور، تناولته الأقلام من سائر الأمم والشعوب؛ وما تزال حتى الآن الوسيلة التي تربط بين الأفراد والأقارب والأصدقاء؛ وحتى الأعداء أحياناً؛ تعبّر عن آرائهم تجاه بعضهم؛ وتفصح عن مكنونات صدور كل واحد منهم.

وكثيراً ما يفتنّ القارئ عندما يكون وجهاً لوجه أمام عمل أدبيّ صادم يثير كثيراً من الشجون والحنين إلى ماض ولّى وبتنا نعيش ذكراه؛ وهذا ما عشته شخصياً وأنا في حضرة «رسائل حبّ مفترضة» للكاتبة العُمانية المقيمة في الإمارات ليلى البلوشي؛ حيث تسللتُ خلسة إلى رسائلها المتخيلة من خلال القراءة المتمعنة؛ للكشف عن مدى مصداقية هذه الرسائل وإلى أيّ حدّ استطاعت الكاتبة الاستئثار باهتمام المتلقي وإيهامه بحقيقة ما تحكي «هذه الرسائل من قلب ليلى وفكرها أما من الكاتبين الشهيرين هنري ميللر وأناييس نن فهما مجرد افتراض».

لقد انحرف السرد القصصي في رسائل الحب؛ وخرج عن خطّ سير القصة المألوف إلى معادل سرديّ من نوع آخر شديد الارتباط بكلّ واحد منّا، كُتّاباً وقرّاءً؛ فغالباً ما نتذكر في حياتنا في فترات معينة ونحن أبطال رسائل حبّ عشناها في الواقع أو في الخيال، فأضحت عملاً سردياً نحن من كتبه أو عاشه؛ أو كتبناه بالنيابة عن آخرين لم تكن لهم القدرة على الكتابة. وراء هذه الرسائل كاتبة رهيفة الإحساس؛ استطاعت بطريقة السرد القصصي هتك أسرار الرسائل المفترضة التي تبادلها كل من الروائي الأميركي هنري ميللر، والمؤلفة الأميركية من أصل إسباني أنا ييس نن «أناييس نن؛ تلك الأنثى المخاتلة... الراقصة الإسبانية وعارضة الأزياء وموديل الفنانين والنحاتين»، في الفترة الزمنية التي شهدت علاقة حبّ وودّ بينهما وهي الفترة المحدّدة بين 1903 و1977 معتمدة في ذلك لغة أدبية آسرة؛ زاخرة باللحظات الموحية من دون الوقوع في فخاخ السرد القصصي المباشر؛ كسرت رتابة تكرار المعنى المعهود في الرسائل وبثت اللذة الجمالية والاستمرار في الاجتذاب الذي يغري المتلقي. هذه الرسائل فيها ثراء روحي وعاطفي على رغم أنها مرّت عبر بوابة الفضاء الإلكتروني؛ جسّدت سرّ إنسانية أدب الرسائل (لن

يشبع google فضولي الشره... ملمّعة سيرتك وكتاباتك معروضة كتحف نفيسة في واجهات الصحف الورقية والمواقع الإلكترونية).

فبهذه الرسائل استطاعت الكاتبة أن تؤسّس لحوار مثر بين أديبين كانا يمارسان تجاه بعضهما، ومن خلال فنّ الرسالة لغة الحبّ والجمال؛ والنقد البنّاء فيغتني واحدهم بتجربة الآخر ونصحه. في هذه الرسائل

يمكن للقارئ رؤية شخصية الكاتبة ليلى البلوشي المرهفة وهي تنعكس عبر تلاوين الكلمات؛ متناولة تفاصيل حياة هنري ميللر وأناييس نن بعفوية ومن دون تقلسف أو تعقيد؛ غير أنها لم تستطع كشف الأسرار بتفاصيلها نظراً إلى الحرج الذي تتسبب فيه البيئة العربية الخليجية خاصة.

جمالية السرد المغلق

تعتبر هذه الرسائل بمثابة الصوت الداخلي للكاتبة؛ كتبتها وهي في حالة من الصفاء الذهني، استعرضت من خلالها ثقافتها ولغتها ورؤاها الفلسفية والفكرية، حيث عباراتها الأدبية جاءت أنيقة في غاية التجويد والإتقان. وقد اعتمدت ليلى البلوشي في «رسائل حبّ مفترضة» على تقنية السرد المغلق؛ انتقت مواضيعها من رسائل متخيّلة لم تخرج عن فضاء غرفة الدردشة المغلقة؛ ما كان له تأثير على تكبيل خيال الكاتبة بعدم التعبير عن اللحظات الساخنة في هذه الرسائل وإخراجها إلى العلن؛ إذ إنها بقيت في حدود اللائق والمقبول من الكلام؛ لكن من حين إلى آخر تبدأ الغرفة في الانفتاح عندما تأخذ الدردشة ذروتها وإثارتها من خلال بعض الألفاظ الساخنة «أنا هنري... حبيبك... طفلك الشقي... خذيني يا هوائي... ضخّي روحي بأوكسجين رئتيك... وحين ينفتح ولعك اغرسي جنون أظفارك حيثما تشائين واثقبيني...». لتردّ عليه أناييس «هنري... آآآآه يا هنري... أيٌّ من الرجال أنت؟».

فالقارئ لهذه الرسائل يملك مفتاح السرد المغلق بحسه ووعيه من خلال مدلولات جنسية أطلت برأسها من بين السطور؛ ومن خلال الكلمات «على الرجل وحده... انتزاع... سلب... تلك الرغبة إن سلما أو حرباً... وذلك وحده يعتمد على رقي الرجل وثقافته المتراكمة في التصرف...». إن هذا المقطع؛ مثقل بدلالات جنسية واضحة؛ اعتبرت المرأة حجرة مغلقة ينبغي اقتحامها بالسلم أو بالقوة؛ مقطع أدبي صاغته الكاتبة بلغة راقية غير خادشة للحياء؛ احترمت فيها مشاعر القارئ وذائقته.

لقد كان للكاتبة القدرة على التعبير بشكل متخيل عما كان يدور بين هنري ونن بلغة مواربة التقت حول المعنى من دون تسمية الأشياء بمسمياتها؛ وتركت للمتلقي الذكي فرصة الإضافة والمشاركة الفاعلة في ملء الفراغات؛ وقد تمكنت بذلك من إخراج ما كان يدور بين هذين الكاتبين من الغرفة المغلقة إلى الضوء والعلن.

* ناقد مغربي

«أسئلة السحاب»... قصائد عفوية لزكريا مصاص

م.خ

تشمل المجموعة الشعرية «أسئلة السحاب» للشاعر السوري زكريا مصاص، مواضيع وطنية وإنسانية وعاطفية واجتماعية، عبّر عنها بقصائد اقتصرت على أسلوبَي الشطرين والتفعيلة.

في قصيدة «يا بلادي»، يعبّر الشاعر مصاص عن ألمه من جرّاء ما يعيشه الشعب السوري بسبب الحرب الإرهابية التي تُشنّ على سورية، وذلك وفق عاطفة إنسانية تعكس واقع الإنسان، الذي يرفض ما يتعرض إليه الوطن فيقول:

ليس للشهد مذاق بفمي
إن يكن أهلي بلا مأوى مريح
كيف أحيا في بلاد جنتي
وسقوف تحتها روح جريح
كم تئنّ النفس لا تلقى صدى
وبعيداً عنهم وطني يصيح.

أما في الغزل، فتظهر الطبيعة جليّة في مكوّنات النصّ الشعري الذي قدّمه كلوحة فنية تشكيلية، تدلّ على أفق واسع وخيال مجنّح، استعار كثيراً من الجماليات لتكوين أسلوب تعبيري يدلّ على موهبة شعرية متطوّرة ومتحوّلة. يقول في قصيدة «طيف»:

ينساب نبضي مثل ساقية
مرّت على جيد الربى وردا
يدنو الدجى منّي على جزر
أن يفزع القنديل والوجدا
ويعود طيفك دوح ذاكرتي
ويزخ شعراً ماطراً جدا.

ويرى الشاعر مصاص أن للحبّ دوراً كبيراً في التحريض على الكتابة، وهو الذي يجعل حديقة الشعر مورقة ومليئة بالبهاء والجمال، وما يسرّ الإنسان وفق تعريف تجلى فيه معنى الحبّ بأسبابه ومكوّناته. فيقول في قصيدة «لولاك»:

لولاك ما أزهرت أفنان أبياتي
ولا ترقرق فجري في الدجى
العاتي كنت الحياة على إسراء بهجتها
والحبّ كنت وما زلت الهوى الآتي
فهل أردّ جمالاً ملء باصرتي
وأنت كلّ جمال في سماواتي.

وثمّة شكل شعريّ آخر كان النصف المكوّن للمجموعة الذي جاء على أنغام تفعيلات متنوّعة عند الشاعر مصاص، ولا يقلّ في مستواه الفنّي عن شعر الشطرين، طالما حرص على وجود الأسس الفنية والبنيوية للقصيدة بما يجب أن تحتويه من عواطف وجماليات. كقوله في قصيدة «كان قلبي»:

كان قلبي حينها
يحلم بالجوزاء تأتي
تمسح السهد بكفيها
وتدعوه قليلاً
كي ينام بأمان
كان كان
في يد الحبّ فؤاد
لوّح الحزن له
طوّح النأي به
وإلى أقصى العذابات رماه الوجد
أدمى وصله.

ويصوّر الشاعر مصاص ما خلّفته الحرب على

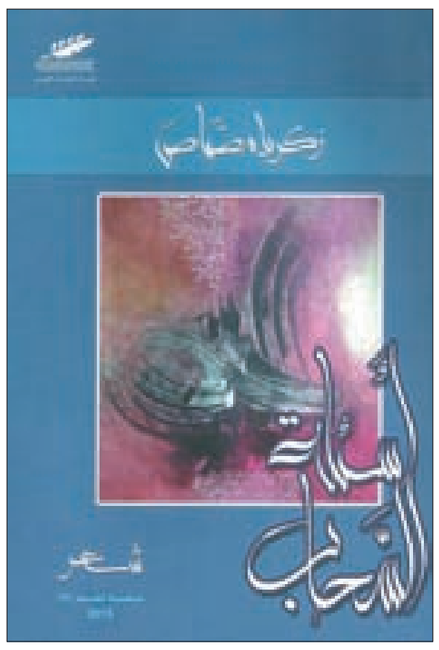

سورية وما تركته من أسى وألم بعدما فتكت بأنيابها بأجمل ما كان يعيشه الشعب السوري، ليسجّل للتاريخ ما يجب أن يقوم به الشاعر بأمانة إذا احتاج إليه الوطن. فيقول في قصيدة «آه يا نوح»:

طاردتنا الحرب
ألقتنا كأحجار الروابي
والوهاد
فرّقتنا في دروب
لم نكن نعرفها قبل
ولم نعهد بيوتاً غير
بيت الحبّ في ظلّ الحبيب
غرّبتنا الحرب
لم يرقد لنا جفن هنا.

الشاعر زكريا مصاص في كتابه الصادر عن اتحاد الكتّاب العرب يرسم بالكلمات عبر أسلوب عفويّ قريب من المتلقّي، نظراً إلى اعتماده على الدلالات البسيطة والمكوّنة لما يقنع الإنسان بأطيافه الثقافية والإجتماعية المتنوّعة، مع الحفاظ على المستوى الفنّي في بنيته الحقيقية.

يشار إلى أن الشاعر مصاص من مواليد حلب عام 1964 حاصل على إجازة في اللغة الفرنسية وآدابها من جامعة حلب، وعلى دبلوم التأهيل في الترجمة والتعريب. يعمل مدرّساً للغة الفرنسية في ثانويات حلب، وهو عضو في «جمعية العاديات»، وفي نادي التمثيل العربي للآداب والفنون في حلب، وله عدد من المجموعات الشعرية منها «السفر إلى المدى الآخر»، كما ترجم مجموعتين شعريتين من الفرنسية إلى العربية، وشارك في عدد من المهرجانات الأدبية والأمسيات الشعرية. حاصلٌ على عدد من الجوائز منها «جائزة عكاظ»، «جائزة الباسل»، «جائزة نقابة المعلّمين»، و«جائزة فرع حلب لاتحاد الكتّاب العرب».